تقديم

الأستاذ الدكتور

سام عمار

عميد كلية التربية بجامعة دمشق

يوم طرح علي الدكتور صالح العلي فكرة الإشراف على رسالة ماجستير تتناول إسهامات الزرنوجي في مجال طرائق التدريس من خلال أثره الوحيد: تعليم المتعلم طريق التعلّم، استصوبت الفكرة وشجعتها؛ لأن حضارة إسلامية نشرت إشعاعها الديني والفكري، والإنساني والحضاري على مساحة واسعة جداً من الكرة الأرضية، وعلى مدى قرون طويلة، ما كان لها أن تنتشر بهذه السرعة، وأن تترسخ بهذه القوة، لو لم تكن تملك، إلى جانب العقيدة والإيمان، أدباً تربوياً ناضجاً يؤدب النفس المسلمة، ويهذب سلوكها، ويسمو بأخلاقها، ويوجه تصرفاتها بما يتفق ومبادىء العدل والمحبة والإخاء والسلام التي انطوت عليها رسالة نبي الإسلام محمد ﷺ.

إن تراثنا التربوي الإسلامي زاخر بهذا الأدب الموجّه، فما عرضه الزرنوجي في كتابه من آراء يكمل ما قدمه علماء المسلمين من أمثال ابن سحنون والغزالي وابن مسكويه وابن خلدون وسواهم.

وما يميز الزرنوجي عن بعض علماء المسلمين أنه لم يصدر في آرائه عن تأمل العالِم فحسب، بل استند فيها إلى خبرة المجرب في الميدان، واحتكم فيها إلى فلسفة تربوية إسلامية الأصول والفروع. لقد جاءت آراؤه تتويجاً لتفاعل تلك العوامل جميعها، ولكنه لم يستطع ـ أو ربما لم يحاول

أو لم ينو، وهذه حال من كتبوا في المجال من علماء المسلمين ـ تأطيرَ نظرية أو طريقة في التعليم محددة الأركان والمعالم والمبادىء والخطوات على نحو ما نراه لدى علماء أوربيين من أمثال مونيتسوري وديكرولي وباركهرست وهربارت وديوي. وليس في ذلك ما يقلل من قيمة عمله وأهميته إن قارنَّا بين المعطيات التربوية المادية والمعنوية المتوافرة في بيئته في القرن السادس الهجري من جهة، والآفاق الواسعة في القرن العشرين التي هيأت أفضل السبل لنمو الفكر التربوي وتألقه من جهة ثانية. وحسبه أنه كان رائداً في الميدان، قدم عصارة فكره وخلاصة تجربته ليعلِّم المتعلِّم طريقَ التعلُّم، أي ليأخذ بيد المتعلم ويرشده إلى أيسر الطرق وأقصرها إلى تعلّم ناجح. أو ليس بذلك يدعو ويوجه إلى تعلّم ذاتي يشكل أحد أهم أهداف التربية المعاصرة؟ وإن هذه الدعوة غير المصرح بها رؤية متكاملة لشخصية المتعلم من جوانبها الوجدانية والعقلية والاجتماعية والصحية، أفلا يعد ذلك سبقاً أكدت التربية المعاصرة ضرورته؟ أو ليست المناظرة والمطارحة (وهي تعبير جميل مرهف عن المناقشة) والسؤال، وهي كلها مصطلحات استخدمها الزرنوجي في كتابه، تصنّف الآن بين طرائق التدريس التفاعلية؟ هذا غيض من فيض مما أشار إليه الزرنوجي في القرن السادس الهجري، ونترك للقارىء الكريم أن يستكمل الرؤية بقراءة الكتاب.

إن كتاب الزرنوجي يشكل منارة من منارات الفكر التربوي الإسلامي في القرن السادس الهجري. والاهتمام الكبير الذي أولاه له الشراح والمترجمون والناشرون يدلل على قيمته وأهميته. فإذا كان هذا الكتاب قد ترجم إلى اللاتينية والتركية والإنكليزية والفرنسية، وإذا كانت طبعاته قد نيّفت على العشرين أفلسنا نحن التربويين العرب والمسلمين أولى بدراسته وتحليله، واستكناه أسراره وأخباره، واستكشاف أفضاله وآثاره.

هذا ما قام به الدكتور صالح العلي الذي آثر أن يضيف على ما قام به منَ سبقوه، فضلاً يسوغ له دراسته، ويمنحه شرف مهمة الباحث في التراث عن كل جديد وغني ومفيد. لقد جهد الباحث في تقصي إسهامات الزرنوجي في مجال طرائق التدريس، محللاً نصوص كتابه ومعلقاً عليها ومؤطراً إياها عبر مقارنتها بمعطيات الفكر التربوي الحديث، ومؤصِّلاً هذه الإسهامات من خلال ذكر الأصول والمصادر الشرعية التي استنبطت منها. وهذه المهمة ذات الأبعاد الثلاثة شاقة من دون شك. ولكن الباحث المستند إلى تجربة غنية في البحث الشرعي استطاع أن يوظف تجربته في الميدان التربوي فأنتج في تقديري عملاً أصيلاً جديراً بالقراءة. غير أن شهادة الشريك مطعون فيها، والقارىء الموضوعي وحده قادر على أن يقول الكلمة الفصل.

الأستاذ الدكتور
سام عمار
عميد كلية التربية بجامعة دمشق
دمشق في ١/ ٥/ ٢٠٠٧